التعزية ولمساتها الأدبية في المرثاة الإسلامية

الأستاذ المشارك الدكتور
سيد حيدر فرع شيرازي
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة خليج فارس- بوشهر
shiraz.he@yahoo.com

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد تقي زند وكيلي
جمهورية ايران الإسلامية
جامعة سيستان وبلوشستان ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Mt_zand@yahoo.com

١. المقدّمة:

إنّ الرّثاء كفنّ من الفنون الشعرية تصوير للموت وفناء الأشياء وينطوي فيه النّوح والبكاء والنّدبة والعزاء والتّأبين وفيه الحبّ والأسى والحزن والحرقة. وقال بعضهم في تعريفه أنّه: ((فنّ يعبّر به الشّاعر عن عواطفه ومشاعره نحو الميّت أو الّذي يشعر بالموت وينتظره فيبكيه ويعدّد مناقبه ويتأمّل في الحياة والممات)). (أبو ملحم، ١٩٧٠، ص٨٢) وتناوله أصحاب النقد بالبحث والدراسة منذ القرون الأولى وعالجوا عناصره الثلاث المعروفة بالندبة والتأبين والتعزية. فهذا المبرّد (٢١٠ - ٢٨٦هـ) فإنّه ألّف كتاباً مستقلاً سمّاه التّعازي والمراثي طرق فيه موضوع التّعزية وما يقابلها من الجزع، لكنّه لم يقدمّ لهما تعريفاً علمياً واكتفي بذكر نماذج ومصاديق شعرية معظمها في التّعزية. وأمّا فأقصي ما نبّه به في تعريف التّعزية هو أنّه: ((أكثر ما تكلم فيه الناس، لأنه لم يعر أحد من مصيبة بحميم، ذلك قضاء الله على خلقه. فكلّ تكلّم إمّا متعزياً وإمّا معزياً، وإمّا متصبراً محتسباً)). (المبرّد، ٢٠٠٩، ص١) وممّا يبدو أنّه اعتبر التّعزية كالمرثية أو كدلالة من دلالاتها لا كعنصر (صورة) مستقلّ يتفرّع عنها. وهكذا قدّامة بن جعفر (٢٦٠ - ٣٣٧هـ) يذكر بحثاً تحت عنوان ((نعت المراثي))، في كتابه نقد الشعر، يجري له فيه حديث يدور أساسه حول الفارق بين المرثية والمديحة فحسب.

وكذا يتناول الموضوع ابنُ عبد ربّه (٢٤٦ - ٣٢٨هـ) في كتابه العقد الفريد تحت عنوان ((كتاب الدرّة في التّعازي والمراثي)). والذي يتحدّث عنه لم يتجاوز عن ذكر عدّة روايات في الجزع أو البكاء أو التعزية، من دون أيّ تفصيل أو تعريف لغويّ أو علميّ (اصطلاحي) لعناصر (صور) من المرثية. وعندما نأتي إلى كتاب آخر في النّقد وهو العمدة لابن رشيق (٣٩٠ - ٤٦٣هـ)، فله في باب الرّثاء ذكرٌ لما يفترق الرّثاء عن المدح ويميزه وعناية مختصرة في تعريف الرّثاء.

وأمّا المعاصرون من الأدباء فإنّ منهم من درس الرثاء وعناصرها فهذا شوقي ضيف في كتابه الرّثاء يتطرّق إلى موضوع المرثية ويجعل لها عناصر ثلاث (صور) رئيسية من النّدب والتّأبين والعزاء، العناصر (الصور) التي شاعت في المراثي الجاهلية واستمرت في الأدب العربي في عصوره المختلفة. (راجع: شوقي ضيف، ص٨-٩) وإلى جانبه اعتبر شوقي ((النّواح والبكاء على الميّت))(شوقي ضيف، ص١٢) ضمن النّدب وأضاف التّأبين كعنصر(صورة) آخر من مضامين المرثية في ((إشادة الميّت ومناقبه)).(شوقي ضيف، ص٥٤) ثمّ أتي بالعنصر الثالث وهو العزاء فجعل ((استعماله في الصبر علي كارثة الموت)).(شوقي

ضيف، ص٨٦) كذا في كتاب في الأدب وفنونه بعد أن يعرّف مؤلفه فنّ الرّثاء - كما سبق - يذكر أنواعه من النّدب والتّأبين والعزاء.

هذا هو جلّ ما عرفنا من الدراسات السابقة فيما يتعلق بالموضوع لكنّ الذي رأينا أنّه يعوزنا في هذه الدراسات هي الفكرة الإسلامية في المرثاة علي أساس أساليب قرآنية وأدب أهل البيت عليهم السلام فأخذنا في ذلك نماذج (لمسات) ادبية من مختلف العصور علي كلا الفكرتين الجاهلية والإسلامية فيما يخص التعزية للمقارنة وتحديد أفضل للمفاهيم والمعايير.

وهذا البحث يندرج ضمن الرّثاء الموجّه الملتزم وله من الأهمّية ما لا يمكن الغضّ عنه لتأثيره البالغ في المُعانين من صروف الدّهر وكوارثها. وهو عنصر(صورة) من الرثاء يُعرف بالتصبّر والمصابرة ومواساة نفوس مهمومة ومصابة بفقدان الأحبّاء والأعزّاء.

٢. التعزية الإسلامية وتعريفها.

ممّا لابد في هذا البحث هو إلقاء نظرة ولو عابرة علي المعني اللغوي للتعزية ثمّ تعريفها اصطلاحاً معتمداً فيه علي بعض ما ورد من القيم الإسلامية في نصوص دينية وذلك فيما يلي:

٢-١.التعزية لغة: إنّ التعزية علي زنة تفعلة من العزاء. والعزاء: ((الصَّبرُ عن كلّ ما فَقَدْت ورزئت. قال الشاعر:

وقد لُمتُ نَفسِي وعَزَّيتُها وباليأسِ والصّبرِ عزّيتُها

(الفراهيدي، ١٤١٤، ج٢، ص٢٠٥)

و((عزِي يعزَى من باب تعب: صَبِرَ على ما نابه)). (الطريحي، ١٣٧٥ش، ج١، ص٢٩٠) و((يقال: إنّه لعزِيّ صبور إذا كان حسن العزاء على المصائب. وتقول: عزيتُ فلاناً أُعزّيه تعزيةً أي أَسَّيته وضربت له الأسى، وأَمرتُه بالعزاء فتعزّى تعزّياً أي تصبَّر تصبُّراً. وتَعازى القومُ: عزّى بعضهم بعضاً)). (ابن منظور، ١٤٠٥، ج١٥، ص٥٢) و((عزيته تعزية قلت له: أحسن الله عزاك أي رزقك الله الصبر الحسن)).(الطريحي، ١٣٧٥ش، ج١، ص٢٩٠)

٢-٢. التعزية اصطلاحاً: هي طلب التسلّي عن المصاب، والتصبّر عن الحزن والاكتئاب، بإسناد الأمر إلى الله عزّ وجلّ ونسبته إلى عدله وحكمته، وذكر لقاء وعد الله على الصّبر مع الدّعاء للميّت والمصاب لتسليته عن مصيبته. (الشّهيد الأوّل، ١٤١٩، ج٢، ص٤٣) ولا حدّ لها شرعاً، لكن قد يقال برجوع تحديدها إلى العرف، كما لو طالت المدة وانقضي المصاب بحيث يستنكر التّعزية عليه، وربما اختلف باختلاف الميّت جلالة وضعة ونحوهما. (الجواهري، ١٣٩٧، ج٤، ص٣٢٦) والتعزّي هو الصبر عن كلّ ما يفقده الإنسان من قريب أو صديق وإنما يتّسع نطاقه إلى ما يضيعه الإنسان من كلّ شيء يألفه مثل القوّة والجاه والمال وما إلى ذلك.

فإذاً يمكن القول بأنّ الرثاء الّذي قوامه العزاء، لا يعبر الشّاعر فيه عن أساه ودمعة عينه كما في النّدبة والبكاء، ولا يعدّد مناقب الميت كما في التأبين، ولا يهتمّ بإعلان النّاس وإخبارهم عن الموت كما في النّعي، ولا يفتكر برفع الصوت ورنّته عند البكاء علي الميت كما في النّياحة، ولا يفوّه بما يدلّ علي عدم تصبره كما في الجزع ولا يكترث فيه بتبيان ملامح

تفجعّه وإصابته كما في الحداد. وإنّما يواسي أهل الفقيد ويعظهم ويصبّرهم بحكم وعظات في الحياة والممات والخلود. فالرثاء بهذا المعني يقصد منه تخفيف الأحزان وتهوين المصيبة.

ومن المناهج المؤثرة في التعزية مشاطرة المصاب بالحزن وبالنياح أو مواساته بالدعاء للميّت وذويه وبلبس الحداد وبالحضور لدي صاحب المصيبة والتشييع والتكفين والتدفين كما ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: ((كفاك من التعزية أن يراك صاحب المصيبة)). (الحرّ العاملي، ١٤٠٩، ج٣، ص٢١٧) وقد تكون بصنع الطعام للمصابين خاصة الأيام الثلاثة الأولى وبالعطف علي الأيتام والرحمة لهم.

٣. التعزية الإسلامية والمصيبة.

إنّ المصاب يتأسّى بالتعزية ويتخفّف ألمه من العظات الّتي يتلقّاها من غيره فيصحّ من هول الصدمة ويسكن روعه من مضض المصيبة. ويندرج في مقام التعزية والمواساة، التصبر والمصابرة والمرابطة كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا﴾ (آل عمران/٢٠٠) وبإلقاء نظرة عابرة في الكتاب الكريم واستقصاء مَا فيه مِن أسالِيب التعزية ومفاهيمها ومواضعها نجد آيات متعدّدة تطرق تهدئة النفس وتسليتها عمّا ينوبها من الخطوب والمكاره باحتمال المشقّات والاصطبار عليها. إنّ الله تعالى عرض لنا أنواع الدواهي والشدائد باسم المصيبة ثمّ بشّر الصابرين عليها في قوله الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة/١٥٥) وعلّمهم بأنّ كلّ نائبة من تلك النوائب صغيرة أو كبيرة، تنطوي ضمنَ المصيبة فاستعملت المصيبة في كل ما يؤذي الإنسان في نفس، أو مال أو أهل. وهذه المصيبة للإنسان يتسع مجاله في الخوف من الحروب والكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والقحط والفقر ونقص الأعمار وما إلى ذلك. ومن المصيبة انقطاع شسع النعل، أو دخول الشوكة في البدن كما روي: ((أنّه طفىء سراج رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال إنّا للّه وإنّا إليه راجعونَ فقيل: أ مصيبة هي؟ قال: نعم. كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة)).(الزمخشري، ١٣٨٥، ج١، ص٣٢٣)

وقد وردت التعزية طريقتها في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾.(البقرة/١٥٦) توطيناً للنفس علي الصبر ليتسهّل له البلاء إذا ورد فيه باختصاص العبودية لله وحده والاعتراف بها والاعتراف بالملكية له تعالى ذاتاً وتدبيراً وتسليماً وبأنّ رجوع الامر كلّه إليه كما هو له. وهذه وسيلة مفضّلة للخلاص من هلك المصيبة وتبعاتها المرهقة، وهي المعروفة بكلمة الاسترجاع التي تبرز في المواساة ورسائل التّعازي. قال النبي صلى الله عليه وآله: ((من استرجع عند المصيبة، جبر اللّه مصيبته، و أحسن عقباه، و جعل له خلفاً صالحاً يرضاه)). (الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٢، ص٤٠٣) والله يواسي المؤمنين المسترجعين عند المصائب ببشارة فيها رحمة و فيها هداية في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. (البقرة/١٥٧) وفي الحديث: ((إنّ في الله عزاء من كلّ مصيبة فتعزّوا

بعزاء الله)). وأراد بالتعزّي بعزاء الله التصبّر والتسلّي عند المصيبة، وشعاره أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. ومعنى بعزاء الله بتعزية الله إيّاه فأقام الإسم مقام المصدر)).(الطريحي، ١٣٧٥ش، ج١، ص٢٩٠) فالمعزّي الحقيقي هو الله تعالى الّذي يلهم الصبر والسلوان، وفيه قال ابن الرومي وهو يبثُ أحزانه بموت أمه:

يُرِيدُ المُعزّي بُرءَ كلمِي بوعظِهِ ولم يك غيرُ اللهِ يُبرئ ما كلِم

هو الواهبُ السّلوان والصّبرَ وحدَه لذي الرُّزءِ والمُهدي الشفاء لذِي السَّقَم

(ديوان ابن الرومي، ١٩٩٨م، ٢٩٥/٣)

فنظراً لهذه المعرفة الدينية من التعزية علي الشّاعر أن يأتي بكلمات ومفاهيم تلهم الصبر في تعبير صادق عن مشاعره حيث لا يجري علي لسانه ما يخالف قواعد العزاء والصبر وما يسخط الربّ من اظهار الجزع بالقول عن خمش الوجوه وجزّ الشّعور وتمزيق الثّياب وما شابه ذلك من إثارة الفتن والدعوي بدعوي الجاهلية، كما قال الرّاعي:

فلمّا التقَت فُرسانُنا ورجالُهم دَعَوا يا لَكعبٍ واعتزينا لعامر

(ابن منظور، ١٤٠٥، ج١٥، ص٥٢)

فالشاعر علي هذه المنهجية يلقي بعواطفه الصادقة مفاهيم توحي بالعز والصمود والحزن المزيج بالصبر ومفاهيم تلهم الحبّ لله سبحانه والتسليم لمقدراته كما ويستجلب بها الوحدة والالتئام والمعاني الإنسانيّة بدلاً من فقدان الصبر بإثارة الفتنة والدعوي الجاهلية.

إذاً يحسن العزاء باتّخاذ الصبر والأمر به وذلك لا يعني نسيان المصيبة وعهدها وإنّما هو الرضا بقضاء الله وتقديره وعدم ظهور كلمة أو حركة تناقضان الصبر والتسليم. وقد قال الصادق عليه السلام لما مات اسماعيل بن جعفر بن محمّد عليه السلام ((أيّها النّاس إنّ هذه الدّنيا دار فراق ودار التواء، لا دار استواء، علي أنّ لفراق الألوف حرقة لا تدفع ولوعة لا تُردّ وانّما يتفاضل النّاس بحسن العزاء وصحّة الفكرة فمن لم يثكل أخاه ثكله أخوه ومن لم يقدم ولداً كان هو المقدّم دون الولد ثمّ تمثّل عليه السلام بقول أبي خراش الهذلي يرثي أخاه:

ولا تحسبي أنّي تناسيتُ عهدَه ولكنَّ صبري يا أميمَ جميلُ

(المجلسي، ١٤٠٣، ج٤٧، ص٢٤٥)

فعيب - علي هذه المنهجية - علي من أوصي بالجزع المخالف للصبر كقول طرفة بن عبد في وصية له لابنة أخيه:

فإن متُّ فانعَيني بما أنا أهلُه وشقّي عَليَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعبَد

(ابن منظور، ١٤٠٥، ج١٢، ص٥٠٣)

٤. التعزية الإسلامية ومراتب المصيبة.

إنّه قد تناول بعض الشعراء رثاء أشياء تافهة ليست لها أهميّة ذاتية وما لها من قيمة عند الأفكار العامّة فيرثي ما يستغرب الإنسان البكاء عليه والحنين إليه بإظهار الجزع والأسف

وإخراج الزفرة، بينما قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام في عدم تأسّفه علي ما يفوته فائت من متاع الدنيا إذ هو راضٍ عمّا يقضي الله تعالى له من عسر أو يسر فيعتقد بأنّ العسر لا يذلّه كما أنّ اليسر لا يبجّحه ولا يُطغيه ويقول:

ما لي علي فَوتِ فائِتٍ أَسَف ولا تَـراني عليـهِ أَلتَهِـفُ

مـا قـدَّرَ اللّـهُ لي فليسَ لـهُ عنّي إلى من سِوايَ مُنصَرَفُ

فالحَمـدُ للّـهِ لا شـريك لـهُ مالي قوتٌ وهِمّـتي الشّـرَفُ

أنَا راضٍ بِالعُسر واليَسارِ فما تـدخُلُني ذلّـةٌ ولا صَـلَفُ

(حيدر المؤيّد، ١٤٢٢، ص١٨٠)

وهناك من الشعراء من يكره الجزع علي المال الذي ينفقه ويوصي أهله بالصبر وفي ذلك يقول الأخفش:

لا تجزعـي إن مُنفِسـاً أهلكتُـه فـإذا هلكـتُ فعنـد ذلـك فـاجزَعِي

(البغدادي، ١٩٩٨م،ج٣، ص٣٣)

فهو يعاتب زوجته علي أن تلومه على إتلاف ماله جزعاً من الفقر، فعنده لا ينبغي الجزع والبكاء علي المال الّذي لا قيمة له وإنّما يليق بها أن تبكي وتجزع علي هلاكه فإنّه لا خلف لها منه.

ممّا لا شك فيه أنّ المصيبة ضرب من الأذى يصاب به الإنسان ولو كان خفيفاً كما مضي في استرجاع النبي صلى الله عليه وآله لسراج طُفئ له لكنّ الأمر لا ينبغي أن ينتهي بالإنسان ليظهر حزنه وأساه بالنّوح والبكاء ويرثي كل أذي يصاب به رثاء الثكلى فإنه أمر غير معقول وإلاّ ليستلزم إذ ذاك أن يقضي الناس حياتهم في كل يوم بالمراثي الحزينة لاستمرار مثل هذه المصائب الصغيرة.

وأمّا السؤال الّذي ينطرح هنا فإنّه ما هي الغاية المنشودة من رثاء متاع غير ذي نفس أو ذي نفس غير ناطق كالحيوان؟ وما هي مكانته وفقاً لأسس دينية نعتمد عليها في دراستنا الموضوعية لهذا الفنّ من الأدب ؟ فقد درس البعض رثاء غير الإنسان وذكروا ما وجدوا وراءه من دوافع إيجابية أو سلبية كحب التفرّد والإغراب واستمالة الأهواء ونشدان الشّهرة فقال بعضهم: ((إنّ الرغبة في التفرد بموضوعات معينة والتخصّص في معاني بعينها وحبّ الإغراب، دفع البعض من الشعراء إلى النظم في تلك الموضوعات)).(عبد الله السوداني، ١٤٢٠، ص١٧٧) لكنا نري أنّه قد تسقط عند مثل هؤلاء رسالتهم الإنسانية والاجتماعية حيث لم يقصدوا من ذلك إلاّ التنافس فيما لا منافس لهم. وهذا أبو حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب يذكر عنه أنّه ((رثي متاعه بما لم يجرؤ أحد بمثله)) (ابن المعتز، ١٩٧٦م، ج١، ص١١٨) وهو يقول: ((والله إنّي لا شريك لي في هذا الفنّ، وإني تفردت به من دون الخلق)). (ابن المعتز، ١٩٧٦م، ج١، ص١٢٦) وفي ذلك اشتهر البعض الآخر مثل: ((كشاجم بمراثيه غير الإنسان فرثي أشياء مادية كالمنديل والعود والابريق، كما رثي الحيوان في ثلاث قصائد هي: رثاء برذون، ورثاء قمري، ورثاء طاووس)).

(عبد الله السّوداني، ١٤٢٠، ص١٧٨).

وهكذا كانت السخرية هي الغاية من وراء كثير من مراثي البهائم كالحمير والثور والشاة وغير ذلك ممّا لسنا بصدد بيانه والتفصيل فيه لأنّه مدروس في الكتب الأدبيّة المختصة بالرثاء كما ذكروا أنّ: ((الرثاء إنّما يكون في العزيز المفقود لا في التّافه الرخيص، ووجه السخريّة يعود إلى التنافر بين مفهوم الرثاء والسخرية، فالرّثاء فنّ البكاء والإبكاء، والسخريّة فن الضحك والإضحاك، وشتّان ما بينهما من غاية)).(عبد الله السّوداني، ١٤٢٠، ص٢٥٤).

والذي يهمّنا في هذا البحث أنّ المسألة لا تتحدّد في نحو هذه الغاية المرفوضة في الالتزام الأدبي وإنّما الأمر قد يعود مردّه إلى بواعث ايجابية أخرى تسوّغ الالتزام في الادبِ الفني الموضوعي كالاستخدام الرمزيّ الّذي يتّخذه الشاعر أحياناً كداعية سياسية، وسيلة لتمرير رأيه وبث فكرته وخوفاً من بغي الحاكم واتقاءاً لشرّه وظلمه وعقابه، كما إذا كان علي صدق ما ذكره الصفدي في مرثية ((الهرّ))(الصّفدي، ١٤٢٠، ج١٢، ص١٠٥) لأبي بكر ابن العلافً، من الباعث الرمزي فيما يقول: ((وقد قيل إنّه رثي بها عبد الله بن المعتز وخشي من الإمام المقتدر أن يتظاهر بها لأنّه هو الذي قتله فنسبها إلى الهرّ وعرض به في أبيات منها. وكانت بينهما صحبة أكيدة)).(الصّفدي، ١٤٢٠، ج١٢، ص١٠٥) وقيل: ((إنّما كنّى بالهرّ عن المحسن بن الفرات أيام محنته لأنّه لم يجسر أن يذكره ويرثيه وأوّلها:

يـا هـرُّ فارقتَنـا ولم تعُـد وكنـتَ عنـدِي بمـنزل الوَلـد

(الصّفدي، ١٤٢٠، ج١٢، ص١٠٥)

وما ينبغي تفصيله أنّ الشاعر قد تحرّكه عاطفة صادقة تملأ وجوده لحبّه المؤكد لحاجة يفتقر إليها فإذا فقدها يترك ذلك فيه فراغاً مؤثّراً فيندفع بفقده وتلفه حتى يرثيه بتفجّع شديد فليس من شك في أنّ الشّاعر إذا رثي مثلاً كتاباً أو سهماً أو سلعة لما كان فيه من نفع وفائدة وأنست به نفسه فقد رثاه بصدق عاطفته وشعوره ولكن هذه العاطفة الصادقة هل هي موجّهة توجيهاً صادقاً لا يُشغل باله عن غايات أسمي ومقاصد أعلي أمامه ليسير نحو التكامل النفسي؟ ولابد للإنسان أن يستقيم على كل حال، فالّذي يتغيّر مع الظروف والمتغيّرات، لا يصل إلى أهدافه و طموحاته فعليه أن لا يأسي علي ما فاته كما أن عليه أن لا يفرح بما يؤتاه. ومن المفروض أن يبكي الانسانَ لعلوّ مرتبته وشرفه، بقيّةُ المخلوقات والكائنات المسخّرة له، لا أن يستصغر نفسه ويستهين بها الإنسان ليفجع ويجزع علي أقلّ الاشياء قيمةً وشرفاً ومعرفةً والله تعالى ينهي الإنسان عن البكاء علي من ليس له شخصية إنسانية فضلاً عن الجمادات والحيوانات في قوله الكريم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾. (الدخان/٢٩) فهنالك قصائد كثيرة في مرثية أعضَاء الجسم والسلع والحيوانات يتسم صاحبها بصدق النيّة من دون الهدفيّة الصادقة.

وعندما نقارن بين مراثي الحيوان في الأدب الإسلامي والأدب الأرضي نتلقّي منها

بوادر في القرآن الكريم علي نمط بديع وهدف مسدّد فالموضوع في كلتا الحوزتين مشترك وهو تناول الحيوان كموضوع فني خاص في التحليل الرثائي ولكن القصد المنشود وطريقة معالجة القضيّة فيما بين الطّرفين يختلف بعضهما عن الآخر. ففي الأدب الإسلامي يتركز الأمر علي عقليّة الموضوع من غير اعتبار عاطفة الرقّة والبكاء التي نعتبرها إحدى الأسس المبنيّة عليها الرثاء الإسلامي إلى جانب العقلانية فيها، بينما في الأدب الأرضي عندما نصل إلى موضوع الحيوان ومعالجة رثائه نتلقّى فيه الاهتمام بالرقّة والبكاء وما يلازمهما عادة من الحزن والأسي والجزع والوهن أكثر ممّا ينبغي فيه من الاكتراث باعتباره ووعظه وعقليّته. وذلك لأن النظرة إلى الحيوان في الوحي المنزل تتفاوت عن رؤية الانسان إليه فإنّ الحيوان في منطق الدين خلق من أجل تكامل الإنسان ولا بالعكس وفي قوله الكريم: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.(الصافات/١٠٧) فهذا هو الإنسان الذي يأكل من لحمه ويشرب من لبنه ويستفيد من جلّده وصوفه ووبره كمتاع له وأثاث إلى حين كما وله فيه تزكية لنفسه ليتقرّب من ربه.

ولمّا نعي الله تبارك وتعالى ناقة صالح وذكر ندامة العاقرين وحسرتهم في قوله الكريم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ (الشعراء/١٥٧) فلم يرد منه المرثية حسب المصطلح العام لدي الأدباء في فنّ الرثاء لينوحوا عليه ويندبوه ويشقّوا الجيوب من فقدانه وإنّما المراد هو الاعتبار العقلي بما اجترّوا علي نعمة الله المسدية إليهم وبما أنهم كفروا إعجاز خلق الناقة وكذّبوا رسوله ودينه. وهذه هي قضيّة الإماتة والإحياء التي كفروا بها والتي هي من أهمّ الموضوعات التي طرقته الآيات الكريمة في نسيج قصصه المتداخلة في نحو قصة الذي مرّ علي قرية وهي خاوية علي عروشها في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...﴾.(البقرة/٢٥٩) وفي قصة إبراهيم الذي أمره الله تعالى ليقطّع أربعة من الطّيور فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ...﴾. (البقرة/٢٦٠) وفي قصة ذبح البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة/٦٧) إلى أنَ تحقّقت الغاية الأصلية من وراء هذا الذبح وهو العبرة والإيمان بما أراده الله تعالى فقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/٧٣) وهكذا في بقيّة الآيات.

وكذا في رثاء الأعضاء فإنّ الحكام الجبابرة استخدموا مختلف أساليب التخويف والتعذيب ليضعفوا من إرادة أصحاب الحق، نحو ما اعتمد عليه فرعون الطاغية في قوله الكريم: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف/١٢٤) وفي الحقيقة كان مراده أن يقتلهم بالتعذيب والتنكيل، ويجعل من هذا المشهد الرهيب درساً للآخرين، لأن قطع الأيدي والأرجل، ثمّ الصلب على الشجر أمام النّاس، ومنظر تدفّق الدّم من أجسامهم وما يرافق هذا من حالات النّزع فوق المشانق إلى أن يموتوا، سيكون عبرة

لمن يعتبر)).(المكارم الشيرازي، ١٤٢١، ج٥، ص١٦٠) ولكنّا نواجه الصّمود وعدم التراجع أمام سياسة الإرعاب والقتل، الموقف الّذي هو أسمى المواقف الصامدة الّتي تجسّد الثبات في العقيدة والهدفيّة في المصير الصادق في قولهم: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. (الأعراف/١٢٥) ولو راجعنا ما ورد في مراثي اليد مثلاً وأعضاء أخري للَجسَم لَوجدنا تلك المراثي ضئيلة إلى حدّ ما، لا من حيث الفنّية ولا من جهة العاطفة الصادقة، وإنّما من منظور هدفية العزّ والصّمود والجهاد والتضحية، فعلي سبيل المثال نذكر ابن مقلة الكاتب المشهور الّذي استوزره المقتدر ثمّ القاهر ثمّ الراضي من الخلفاء العباسيين إلى أن جري القضاء عليه بتخويفه وحبسه وقطع يده. فكان ((ينوح على يده ويبكي ويقول خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين تقطع كما تقطع أيدي اللصوص فأسليه)).(ابن خلكان، ج٥، ص١١٥) وله أشعار في شرح حاله وما انتهى أمره إليه ورثاء يده، من ذلك:

ليس بعد اليَمينِ لذّةُ عيشٍ يا حياتي بانَت يميني فبِيني

(ابن خلكان، ج٥، ص١١٥)

إنّ ابن مقلة لم تبق له لذة عيش بعد ما أصيب بيده وهو آيس من الحياة، يودّعها من بعد ذهاب يمينه، حسرة علي ما فاته من غنائم الفرص في غاية الحزن والألم وقد أحب ابن مقلة يده لأنه يستر بها دموعه، والآن يبكي عليها ويذرف الدموع حباً لها. في قوله:

أحببتُ شَكوَى العينِ مِن أجلها لأنَّها تستُرُ وجدِي بها

كنتُ إذا أرسلت لي دمعة قال أناس ذاك من حبِّها

فصِرتُ أبكي الآن مسترسلاً أُحِيلُ بالدَّمع علي سَكبِها

(الصّفدي، ١٤٢٠، ج٤، ص٨٣)

في الواقع إنّه يمكن للإنسان أن يدرس ويعرف شخصيّة الشاعر ومبلغ إيمانه وإسلامه ومدي التزامه من خلال أشعاره وتمنّياته الصادقة. فمن هذه الشخصيّات البارزة الفذة الّذي برز اسمه وعرف بالتضحية والشجاعة هو عباس بن عليّ، صاحب لواء الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء فإنّه لا يبالي بقطع يمينه ويساره في سبيل الحق، وهو يرتجز بعد قطع يمينه قائلاً:

واللّه إن قطعتُمُ يَمِيني إنّي أُحامِي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادقِ اليَقينِ نَجلِ النّبيِّ الطّاهرِ الأمينِ

كذا بعد قطع يساره حين يقول:

يا نفسُ لا تخشَي مِن الكفّار وأَبشِرِي برحمة الجبّار

مع النّبيِّ السَّيِّد المُختار قد قطعُوا ببغيِهم يَسارِي

فأصلِهِم يا ربِّ حرَّ النّار

(الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٣، ص٢٥٦)

وأمّا بالنّسبة إلى المصائب الجليلة والعظام فإنّه ورد في بعض الروايات أنّ من أعظم المصائب هي المصيبة في الدين المتمثلة في انقطاع الوحي بمفارقة الرّسول ﷺ نحو ما قال ﷺ: ((إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنّ مصابه بي أعظم من كلّ مصاب)).(الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٢، ص٤٤٣) لأنّ مثل هذه المصيبة يُصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ممّا لا رجعة في نزول الوحي. والزهراء عليها السلام قد ثقل عليها فراق أبيها من أجل ذلك وقالت:

قد كنت للخلق نوراً يُستضاءُ به ... عليكَ تُنزل من ذي العزةِ الكُتُب

وكان جبريلُ بالآياتِ يُؤنِسُنا ... فغاب عنّا فكلّ الخير مُحتَجَبُ

(الشّيخ المفيد، ١٤١٤، ص٤١)

٥. التعزية الإسلامية و السنة النبوية.

وممّا يبدو من المصادر الإسلاميّة أنّه أُعطيت كلمة الاسترجاع لأوّل مرة لخاتم النبيّين رسول الله ﷺ واختصّ الله بها أمّة محمّد من غير الأمم السابقة. فقد قال سعيد ابن جبير: ((لم تعط هذه الكلمات نبيّاً قبل نبيّنا، ولو عرفها يعقوب لمّا قال: ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ (القرطبي، ١٣٦٤ش، ج٢، ص١٧٦) وإنّه كما عزّي النّبيّ ﷺ جبرئيلُ بابنه الحسين (راجع: المجلسي، ١٤٠٣، ج٤٤، ص٢٣٩) كذلك عزّي الحسينُ عليه السلام أخته زينب عليها السلام ليلة عاشوراء بقوله: ((يا أختاه! اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، فإنّ سكان السماوات يفنون، وأهل الأرض كلهم يموتون، وجميع البريّة يهلكون)). (الأمين، ١٤٠٣، ج٣، ص٤٨٥)[1].

وأمّا النّبيّ ﷺ فإنه كان من شيمته الكريمة أن يعزّي المصابين ويسلّيهم عن مصيبتهم بذكر آيات من القرآن الكريم تلهم الصّبر والسّلوان وترضي النفس بالاطمئنان كما كان يحضر المحتضرين ويواسيهم بالبكاء عليهم رقّة ورحمةً لهم ويدعو لهم بالخير. فمن ذلك ما روي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: ((بينما رسول الله ﷺ جالس ونحن حوله، إذ أرسلت ابنة له تقول، إنّ ابني في السوق[2] فإن رأيت أن تأتيني فقال رسول الله ﷺ للرّسول: انطلق إليها فأعلمها أنّ لله تعالى ما أعطى، ولله ما أخذ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران/١٨٥) الخ...)).(الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٢، ص٤٥٩-٤٦٠) وبما أنّ للمصاب بالغ الحزن والأسي فإنّ النّبيّ ﷺ كان يعزّي أصحابه ليخفف عنهم همومهم، ولوعة مصابهم وليتقربوا إلى الله تعالى، ففي ((البحار)) أنّ النبيّ الأكرم ﷺ كتب إلى معاذ يعزّيه بابنه:

((من محمّد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الّذي لا إله إلا هو. أمّا بعد فقد بلغني جزعك علي ولدك الّذي قضي الله عليه وانّما كان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة عندك، فمتّعك الله به إلى أجل وقبضه لوقت معلوم فإنّا لله وإنا إليه راجعون، لا يحبطنّ جزعك أجرك ولو قدمت علي ثواب مصيبتك لعلمت أنّ المصيبة قد قصرت لعظيم ما أعدّ الله عليها من الثواب لأهل التسليم والصّبر واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع قدراً فأحسن العزاء وتنجز الموعود فلا يذهبنّ أسفك

علي ما لازم لك ولجميع الخلق نازل بقدره والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته)). (المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٤، ص١٦٤)

هذا وقد ورد التحريض علي التعزية وكيفيّتها في أحاديث من أهل البيت عليهم السلام لاسيّما في إقامة المصيبة للإمام الحسين عليه السلام سيّد الشّهداء ففي حديث طويل في ثواب زيارة الحسين عليه السلام وإقامة المصيبة والبكاء عليه في يوم عاشوراء قال الراوي: ((قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: فكيف يعزّي بعضهم بعضاً، قال: يقولون: عظّم اللهُ أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام، وجعلنا وإيّاكم من الطالبين بثأره مع وليّه الإمام المهدي من آل محمّد صلى الله عليه وآله. (ابن قولويه، ١٤١٧، ص٣٢٦) إنّ المواساة والتعزية من شيمة الكرام والأفاضل كالأنبياء والرّسل، وقال النّبي صلى الله عليه وآله: ((إنّ التّعزية تورث الجنّة)) (المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٩، ص٨٩). وقال صلى الله عليه وآله: ((من عزّي مصاباً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المصاب شيء)).(الكليني، ١٣٦٢ش، ج٣، ص٢٢٧) وعن أبي جعفر عليه السلام قال: كان فيما ناجى به موسى عليه السلام ربّه قال: يا ربّ ما لمن عزى الثكلى؟ قال: اظلّه في ظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي)))). (الكليني، ١٣٦٢ش، ج٣، ص٢٢٦). وقال أبو فراس في استحباب التعزية وهو يرثي أخته:

فلا سَلِمت مُقلةٌ لم تسُح ولا بَقيت لِمَّةٌ لم تَشِبْ

يُعزّونَ عنك وأينَ العَزاءُ ولكنّه سُنّةٌ تُستَحبْ

(أبو فراس الحمداني، ١٤١٤، ص٢٤)

مع أنّ الناس يعزّون الشاعر في فقدان أخته فهو يستعظم المصيبة ويستبعد فيها العزاء لكنّه يري الأمر للمعزين والمعزّي مندوباً معمولاً به في السنّة النبويّة.

وإنّ عليّ بن أبي طالب عزّي قوماً عن ميّت مات لهم فقال عليه السلام: ((إن هذا الأمر ليس بكم بدأ، ولا إليكم انتهى، وقد كان صاحبكم هذا يسافر؟ فقالوا: نعم. قال: فعدوه في بعض سفراته، فإن قدم عليكم وإلّا قدمتم عليه)) (ابن أبي الحديد، ج١٩، ص٢٧٤).

ولهذا يندب مواساة المؤمنين بالتعزية والمصابرة إلى درجة بلوغ الجنّة، وليس ذلك ببعيد خاصة اذا كان الله عزّ وجلّ هو أوّل معزّ للإنسان المؤمن حيث روي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل، قال: ((لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله بات آل محمّد عليهم السلام بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم ولا أرض تقلهم... إذ أتي آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته إن في الله عزاءً من كل مصيبة ونجاة من كل هلكة... إلى أن قال الرّاوي: فسألت أبا جعفر عليه السلام ممّن أتاهم التعزية فقال: من الله تبارك وتعالى)). (الكليني، ١٣٦٢ش، ج١، ص٤٤٥) صحيح أن المتعزّي لو صبر وتعزّي بعزاء الله فإنّ أجره علي الله لكن الامر ليس بسيطاً إذا كانت المصيبة لصاحبها عظيمة. يقول عليّ عليه السلام من مرثيته بشأن النبيّ صلى الله عليه وآله:

يُعزّونني قومٌ بُراهُ من الصبر وفي الصبر أشياء أمرُّ من الصَّبر

يُعزِّي المُعَزِّي ثمَّ يَمضِي لِشَأنِه ويبقَى المُعَزّي في أحَرِّ مِن الجَمر

(قطب الدين البيهقي، ١٣٧٣ش، ص٢١٣)

فكلام علي عليه السلام يدلّ ههنا علي جلالة المصيبة لفقدان النّبيّ صلى الله عليه وآله بحيث لم يدرك عظمتها أحد غير أهل البيت عليهم السلام. وفقْد النبيّ كان في الحقيقة فقد الكمالات والفضائل الروحيّة فلم يشعر بهذا الفراغ الموجع سوي من كان يتمتع في حياته بتلك الكمالات وينهل من مناهلها في أعلي درجاتها وهم أهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإلاّ لكان عليّ عليه السلام عزياً صبوراً ويقول عنه الإمام زين العابدين عليه السلام: ((ما أصيب أمير المؤمنين عليه السلام بمصيبة إلاّ صلّي في ذلك اليوم ألف ركعة وتصدّق علي ستين مسكيناً وصام ثلاثة أيام وقال لأولاده إذا أصبتم بمصيبة فافعلوا بمثل ما أفعل فإنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا يفعل فاتبعوا أثر نبيّكم ولا تخالفوه فيخالفَ الله بكم إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.(الشورى/٤٣) قال زين العابدين عليه السلام: فما زلتُ أعمل بعمل أمير المؤمنين)). (الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٢، ص٤٨١) وللإمام زين العابدين مرثية ناتئ فيها عنصر التعزية علي أساس القيم الإسلامية البحتة، يقول عليه السلام فيها:

تعزّ فكلٌ للمنيّة ذائقُ ... وكلُّ ابن أنثي للحياة مفارقُ

فعمرُ الفتي للحادثات دريئةٌ ... تناهبهُ ساعاتُها والدقائقُ

فكلّ ابن أنثي هالك وابن هالك ... لمن ضمّنتها غربُها والمشارقُ

(الإمام السّجاد عليه السلام، ١٤٢٣، ص٥٧)

والقصيدة طويلة يزيد عدد أبياتها عن خمسين بيتاً ذكرنا منها بقدر الحاجة. وكذلك الزّهراء عليها السلام كانت تُجل المصيبة من أجل انقطاع الوحي والنبوّة وهي ترد عتاب من يعاتبها في بكاءها علي النّبيّ صلى الله عليه وآله وتستعظم الصبر والعزاء في النبيّ الأكرم الذي هو علي خلق عظيم فتقول من كلامها عليها السلام:

والصبر يَحسُن في المواطن كلّها ... إلاّ عليك فإنّه مَعدوم

لا عَتبَ في حُزني عليك لو أنّه ... كان البكاء لِمُقلتيَّ يَدوم

(حيدر المؤيّد، ١٤٢٢، ص٣٢٤)

وأمّا رسائل التعازي عند الأئمّة عليهم السلام فهي كثيرة وبحاجة إلى من يلم شعثها لتُدرس دراسة أدبيّة فنيّة، وموضوعية، فمن أحسن التعازي التي وصلتنا لعليّ بن أبي طالب عليه السلام هي التعزية التي يرسلها لنفسه وهو في أشدّ الظروف وآلمها وذلك بعد وفاة فاطمة بنت الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله فعن أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام قال:

((لمّا قبضت فاطمة عليها السلام دفنها أمير المؤمنين سراً وعفا على موضع قبرها، ثم قام فحول وجهه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: السّلام عليك يا رسول الله عني والسلام عليك عن ابنتك وزائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك والمختار الله لها سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري وعفا عن سيدة نساء العالمين تجلدي، إلاّ أنّ لي في التأسي بسنتك في فرقتك موضع تعز، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت نفسك بين نحري وصدري، بلى وفي كتاب الله (لي) أنعم القبول، إنا لله وإنا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة وأخذت

الرّهينة وأخلست الزهراء،... وفيك يا رسول الله أحسن العزاء صلى الله عليك وعليها السّلام والرّضوان. (الكليني، ١٣٦٢ش، ج١، ص ٤٥٨-٤٥٩)

وفي الحديث أنّه لّما بلغ علياً موت الأشتر، قال: ((انّا لله وانا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللّهم إنّي احتسبه عندك فان موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكا فقد كان وفيّاً بعهده وقضى نحبه ولقي ربه. مع أنّا قد وطنّا أنفسنا أن تصبر على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنّها من أعظم المصائب)).(الأمين، ١٤٠٣، ج٩، ص٣٩)

٦. التعزية الإسلامية والرسوم الجاهلية.

هنالك أعراف ورسوم اجتماعيّة وعقائد زائفة في باب التّعزية سادت في المجتمع الجاهلي وضعفت في الساحة الإسلامية الجديدة، ولها أثرها الأدبي قبل الإسلام وبعده نذكر أهمّها فيما يلي:

٦-١. التعزية والهامة: من الرسوم التي سادت المجتمع الجاهلي قبل البعثة هي أنّه كانت الجاهلية تعتقد بالهامة والصدى، والهامة كما قالت العرب: ((عظام الموتى، وقيل: أرواحهم، تصير هامة فتطير، فنفاه الإسلام، ونهاهم عنه)). (الزّبيدي، ١٤١٤، ج ١٧، ص٧٧١) وعندما جاء الإسلام بفكرة البعث والنشور والعقاب والجزاء والجنّة والنار بعد الموت أخذ الكفار يسخرون منها ويرفضونها. والشعر العربي الجاهلي اكتظّ في مراثيه بمثل هذه المفاهيم الخرافية والأساطير الجاهلية كما قال لبيد:

فليس النّاسُ بعدك في نفيرٍ ولا هم غيرُ أصداءٍ وهامِ

(لبيد، ١٤١٧، ص١٧٢)

وعند البعثة فقد تغيّرت المفاهيم والدّلالات اللّفظية متأثّرة بالثّقافة الإسلاميّة الحديثة في باب التعزية وإنّه باب موسّع والحديث ذو شجون، ولكن على سبيل التلميح نذكر حسان ابن ثابت أنّه كيف عزّي أمامة بنت حمزة بالدّلالات الإسلاميّة الحديثة كالشّهادة والرّضوان والغفران والجنّة. وروي أنّه لّما قدم رسول الله ﷺ من عمرة القضية أخذ معه أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب فلمّا قدمت أمامة المذكورة طفقت تسأل عن قبر أبيها فبلغ ذلك حسّان بن ثابت فقال:

تُسائِلُ عن قَـرمٍ هِجـانٍ سَـمَيدَع لدى البأسِ مِغوارِ الصّباح جَسورِ

فقلـتُ لهـا إنَّ الشَّـهادةَ راحـةٌ ورِضـوانُ ربٍّ يـا- أمـام -غَفـورِ

دعاه إلهُ الخَلقِ ذُو العرشِ دَعوَةً إلى جنَّـةٍ يَرضَـي بهـا وسُـرورِ

(حسان بن ثابت، ١٤١٠، ص٢٣٩)

وكذا الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشّريد شاعرة العاطفة والرّثاء لها مفاهيم قيّمة استلهمتها من الثّقافة الإسلاميّة فبعد أن قرأت الآية الشريفة علي أولادها قبيل حرب القادسيّة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا . . .﴾ (آل عمران/٢٠٠) تحمسهم وتواسيهم بالفوز وجنّة الخلد قائلة: ((فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين وبالله على

أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظى على سباقها وجللت ناراً على أوراقها فتيمّموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة)).(الصّفدي، ١٤٢٠، ج١٠، ص٢٤٣-٢٤٤).

٦-٢. التعزية والمرأة: ومن الرّسوم الجاهليّة المعمول بها عند الشعراء هو عدم التعزية بالنّساء لثقافتهم المُهينة بشأن المرأة حيث استمرّ مثل هذا العرف الاجتماعي وبقي أثره في العصور الأولى بعد الإسلام من العصر الأموي، حتى العصر العباسي ويدلّ علي ذلك ما ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه لمّا عزّي بأخت له بعد دفنها لم يردّ علي المعزّين فلما شعر النّاس منه بذلك امسكوا عن تعزيته. قال ابن عبد ربّه: ((وتوفّيت أُختٌ لعمر بن عبد العزيز، فلمّا فَرغ من دَفنها دنا إليه رجل فعزّاه، فلم يردّ عليه، ثم آخر فلم يردّ عليه. فلما رأى النّاس ذلك أمسكوا ومشوا معه. فلما دخل الباب أقبل على النّاس بوجهه فقال: أدركتُ الناس وهم لا يُعزّون في المرأة إلاّ أن تكون أمّا)). (ابن عبد ربه، ١٤٠٤، ج٢، ص١٦٢) وقال الحسن البصري: ((من الأدب أن لا يعزّى الرجل في زوجته وهذا من تفرداته)). (الشربيني، ١٣٧٧، ج١، ص٣٥٥).

لكن ما قاله الحسن البصري وما ذهب إليه غيره في تشنيع التعزية بالمرأة فإنّه ليس من الإسلام في شيء وليس يرام به ما جاء في سيرة أهل البيت عليهم السلام. فإذا أردنا أن نتمثّل بنماذج من التاريخ الإسلامي بهذا الصدد فإنّ الأمثلة فيها كثيرة نذكر منها رسالة الحسن بن عليّ عليه السلام سبط النّبيّ صلى الله عليه وآله أجاب بها قوماً من أصحابه كتبوا إليه يعزونه عن ابنة له توفّيت فكتب عليه السلام إليهم: ((أمّا بعد، فقد بلغني كتابكم تعزّوني بفلانة، فعند الله أحتسبها، تسليماً لقضائه، وصبراً على بلائه،... وكانت أمة مملوكة سلكت سبيلاً مسلوكة، صار إليها الأوّلون، وسيصير إليها الآخرون والسلام)).(الميرزا النوري، ١٤٠٨، ج٢، ص٤٧٩)

وممّا يبدو للأسف أنّ من الشّعراء من أساء الفهم لبعض القرآن بالإضافة إلى أنّهم تأثّروا بالأحاديث الموضوعة الدّينيّة ممّا لا حقيقة له فعبّروا عن انطباعات شّخصية في شعرهم وأدبهم وجعلوها نصب أعينهم ليبلّغوها آذان غيرهم ممن تقلّ معرفتهم بالدّين وقلّما نجد في عصرهم من يستشكل ويردّ عليهم مثلما وقعت نقائض شعرية في ضروب من الفنون الشّعرية كالرّثاء والهجاء وغيرهما. فمن هؤلاء من استمسك برواية منسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وآله ليدلي برأيه في إقلال شأن المرأة وكراهيّة التعزية والإشادة بها والارتياح منها عند الموت فروي عن ابن عباس رواية ذكرها العامّة بأنّه: ((لما عزّي رسول الله صلى الله عليه وآله على رقية امرأة عثمان بن عفّان قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات)).(الحلبي، ١٤٠٠، ج٢، ص٤٣٦؛ وراجع: الشّربيني،(١٣٧٧، ج١، ص٣٥٥) واختلفوا في ثقة الرواية أو عدم ثقتها، إلى أن جعله البعض فيما ألّفوا ضمن الأحاديث الموضوعة.(راجع: الصدر، ص ٣١٦ - ٣١٧)

وذهب البعض الآخر إلى التعليق عليه وتوجيهه بالإيجاب قائلاً: ((الظاهر أنّ المراد بذلك إكرام البنات بتولي الأب بنفسه دفن من تموت منهن، أو حفظاً لحرمة البنت وصيانة

لها عندما تتولى يد الأب توسيدها في قبرها)).(الشّيخ محمد السبزواري، ١٤١٠، الهامش ص ٢٨٤) فمهما يكن من أمر، فإنّه انعكس هذا المعني في أدب الشعر. قال الباخرزي:

القــبرُ أخفَــى سِــترةً للبَنــات ودفنُهــا يُــروَى مِــن المَكرُمــات

أمَــا رأيــتَ اللّهَ عــزّ اسمُــه قد وضع النّعشَ بِجنبِ البَنات

(الحلبي، ١٤٠٠، ج٢، ص٤٣٦)

كذلك ورد هذا القول منسوباً للرّسول ﷺ في قصيدة البحتري في تعزيته لأبي الحسن ابن الفرات عن ابنته قال:

لقــولِ الــنّبيّ عليــه الســلا م دفنُ البناتِ مِن المَكرُمات

(البحتري، ١٤١٤، ج١، ص٢٠١)

وللبحتري مواقف سلبية تجاه العزاء عن المرأة ممّا جعل النّاقدين يذكرونه ضمن المتأثرين بالنّزعات الجاهلية المصغرة بشأن المرأة ولا نعاود ذكرها خاصة خطأه الفادح في انطباعه من الآية الشريفة: ﴿الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا...﴾ (الكهف/٤٦) حيث عبّر عنها في تعزيته أحد بني حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت قائلاً:

لسن من زينةِ الحياة لعدٍّ اللّهِ منها الأموالَ والأبناءَ

(البحتري، ١٤١٤، ج١، ص١٢)

فأخذ عليه شوقي ضيف في كتابه الرثاء وقال: ((وهذه مغالطة من البحتري، لأنه يعرف أن جمع الذكور والإناث يغلّب فيه الطرف الأول، فكلمة البنون في الآية الكريمة تشمل البنات، وقد رأينا حملة القرآن علي العرب لنفس هذا الموقف الذي يقفه البحتري)). (شوقي ضيف، ص٩٣) وكذا نأخذ عليه خطأه في انتقاصه لمعني هذه الآية الشريفة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فيه﴾ (البقرة/٣٦) حيث عبّر في شعره عنه:

واستزلّ الشيطان آدمَ في الجنّــ ــةِ لما أغــري بــه حــوّاءَ

هذا ومنهم من استمسك برواية أخري منسوبة إلى الرّسول ﷺ وجعلها ذريعة لتشويه التعزية بالمرأة والرواية عن ابن عبّاس أنّه قال رسول الله ﷺ: ((للمرأة ستران قيل: وما هما قال الزّوج والقبر قيل: فأيهما أستر قال: القبر)).(المتّقي الهندي، ١٤٠٩، ج١٦، ص٤٠٨)[٣] وروي: ((نعم الصهر القبر.))[٤] ومثله ما روي مرفوعاً: ((للنّساء عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة فإذا ماتت ستر القبر تسع عورات)).(الفتني، ص٢١٨) وفيه أنشد العجلوني لبعض الشّعراء:

لكلِّ أبي بنتٍ على كلِّ حالة ثلاثةُ أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصّهر

فزوجٌ يُراعِيها وخِدرٌ يَصُونُها وقبرٌ يُواريها وخيرُهم القَبر

(العجلوني، ١٤٠٨، ج١، ص ٤٠٧)

وعلي هذا المنوال تأثّر الشّعراء مثل ما قال كشاجم:

تـــأسَّ يـــا أبـــا بكـــر لمـــوتِ الحُـــرّةِ البِكـــرِ
فقـــد زوَّجتَهـــا القـــبرَ ومـــا كـــالقبرِ مـــن صِـــهرِ
وعُوّضـــتَ بهـــا الأجـــرَ ومـــا كـــالأجرِ مـــن مَهـــرِ
زفـــافٌ أهـــديت فيـــهِ مـــن الخِـــدرِ إلى القـــبرِ

(الأميني، ١٣٩٧، ج٣، ص٣٧٤)

ويبدو أنّ التعبير عن القبر بالصهر ينشأ أساسه عما كان عليه الجاهلية من وأد البنات ودفنهن أحياء إذ كانوا يقولون زوّجناهن من القبر ثمّ أجري فيما بعد مجري المثل كما أشار إلى ذلك ابن سيده في قوله: ((وربما كنوا بالصهر عن القبر، لأنّهم كانوا يئدون البنات فيدفنونهم، فيقولون: زوّجناهن من القبر، ثم استعمل هذا اللفظ في الإسلام فقيل: نعم الصّهر القبر، وقيل: إنّما هذا على المثل، أي الّذي يقوم مقام الصهر، قال: وهو الصحيح)).(المقريزي، ١٤٢٠، ج٦، ص١٨٩).

والذي ينبغي ذكره أنّ البنت رحمة كما في الروايات وفيها وصيّة للآباء بالإشفاق والرقّة عليها أكثر من الذكور، وقد ورد في باب تحريم تمنّي موت البنات، عن عمر بن يزيد أنه قال لأبي عبد الله عليه السلام: ((إنّ لي بنات، فقال: لعلّك تتمنّي موتهن، أما إنك إن تمنيت موتهن ومتن لم تؤجر يوم القيامة، ولقيت ربك حين تلقاه وأنت عاص)).(الحرّ العاملي، ١٤٠٩، ج٢١، ص٣٦٦، وج١٥، ص١٠٣) فإذا كان تمنّي موت البنات ذنباً فكيف نحسب التّعزية بهنّ عاراً وإذا كان التّغزل بهنّ شائعاً فكيف صار العزاء عنهنّ شناراً. فإلي جانب الشعراء الذين استنكفوا التعزية بالنساء (راجع: عبد الرشيد سالم، ١٩٨٢، ص٩٨ - ١٠٠) هنالك منهم - وعددهم غير قليل - من لم ير التعزية بالنّساء عيباً ولا عاراً فرثي المرأة وعزّي بها نفسه أو غيره من الناس نحو المتنبّي الّذي رثي أخت سيف الدّولة خولة ورثي والدته وأبنها أحسن تأبين وعزّي بها سيف الدولة بكلمات لا تليق إلاّ الملوك:

أسيفَ الدولةِ استنجد بصبر وكيـفَ بمثـل صـبرك للجبـالِ
وأنـت تعلّـم النّـاس التعـزّي وخوضَ الموتِ في الحربِ السّجالِ

(المتنبي، ١٤٠٧، ج٣، ص١٥٠)

فيقول الشّاعر أنّك تعوّدت من مجالدة الخطوب وخوض غمار الحروب ما علمك الصبر، حتى صرت تصبّر الناس، ولا تحتاج إلى تصبر. وفي الأشعار التي أنشدت للمتنبّي في رثاء المرأة وتأبينها والتعزية بها دلالة واضحة علي أنّ المتنبي: ((كانت نظرته للمرأة نظرة تقدير واحترام، وأنّه يختلف في رأيه فيها عن البحتري وكشاجم وغيرهما من شعراء العصر العباسي الّذين ظلوا متأثرين بالنّظرة الجاهلية)).(عبد الرشيد سالم، ١٩٨٢، ص١٠٦) فهذا ابن الرومي مثلاً يقول في عزاء عن ابنة يواسي نفسه بخلود ابنته في الجنة اعتقاداً بالله تعالى وأنّ الدنيا دار ممر وليست دار مقر:

تعزّيـت عمّـن أثمرتـك حياتـه ووشك التعزّي عـن ثمـارِك أجـدَرُ

تعـذّر أن نعتـاضَ مـن أُمّهاتنـا وآبائنـا والنّسـلُ لا يَتعـذّر
فلا تُهلكنْ حزناً علي ابنـة جنّـة غدَت وهي عند الله تُحبَي وتُحبَر
ومـا هـذه الـدّنيا بـدار إقامَـةٍ ولكنّمـا الـدّنيا مجـازٌ ومَعبَـرُ

(ابن الرومي، ١٩٩٨م، ٢٩٥/٣)

وللشّريف الرضي تعزية أخيه عن وفاة ابنة له يقول فيها:

وقد شنّ فيها حادث الموت غارةً ثنَتنـا ولم تَطلُـع إلينـا كتائبـا
فلا تحسبَنْ رُزءَ الصّغائر هَيّنـاً فـإنّ وَجَـي الأخفـاف يُنضِـي

(الشّريف الرضي، ١٣٨٠، ج١، ص١٥٧)

وكانت التعزية في المرأة في العصر الحديث تختلف عما ثبتت في العصور السالفة فحين ماتت ابنة البارودي عزّاه فيها حافظ وشوقي بما يليق بمكانها بين أهلها، وتوفيت ابنة الشيخ علي يوسف صاحب ((المؤيد)) فعزّاه فيها بأجمل العزاء الشاعر الكبير اسماعيل صبري، كما نجده يعزي السلطان حسين كامل في وفاة أمّه سنة١٩٢٦م، وحافظ ابراهيم يمجد حفني ملك ناصف ((باحثة البادية)) في رثائه لها. (راجع: عبد الرشيد سالم، ١٩٨٢، ص١٠٠-١٠٨) واشتهرت مراثي المرأة في الأدب الأندلسي، كما ((أنّ ابن جبير نظم ديواناً كاملاً من الشعر والموشح في رثاء زوجته أم المجد، ومثله فعل أبو حيان الأندلسي في رثاء ابنته نضار فقد رثاها في ديوان شعر كامل)). (راجع: ابو حسين، ١٤٢٦، ص١٥٨ - ١٦٣)

٦-٣. التعزية والدعوي الجاهلية: ومن الرسوم التي حرص عليها العرب الجاهلي وعني بها الشعراء عناية كبيرة هو التعزّي بعزاء الجاهليَّة ودعوى القبائل، حيث إذا كان الشعراء يدعون بها عند المصائب لم تكن تثمر لهم شيئاً سوي تهييج الفتن وإيقاد الحروب الغاشمة وإشاعة التفرقة وإثارة العصبية القبلية والنعرات الجاهلية فلذلك ما كان لهم التعزّي إلا بالدعوة إلى أخذ الثأر والتشفّي بالانتقام فكفّ عنه الإسلام وحرّمه وخالفه بشدّة لعدم التفرقة ولتماسك الأمّة بالوحدة والانسجام وليتحسّن عندهم التصرف، وفي الحديث: ((سيكون للعرب دعوى قبائلَ، فإذا كان كذلك، فالسَّيفَ السَّيفَ حتى يقولوا يا لَلمسلمين)). (ابن منظور، ١٤٠٥، ج١٥، ص٥٣) وجعل الإسلام إزاء هذا النوع من التعزّي الجاهلي، التعزّي بعزاء الله تعالى لتكون دعوة المسلمينَ واحدةً مركزة علي ربٍّ واحد.

٧. التعزي وأسبابه.

التعزّي والذي يعني به التصبر والتجلد، له أسباب ودواعٍ تختلف من ظروف إلى أخري ولعلّ من أهمّها وعلي رأسها ما نذكره في التالي:

٧-١. التعزّي والاعتبار بالموت: إنّ من أسباب التعزّي ودواعيه ما يكون بذكر الموت والاتعاظ به علي سبيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.(النور/٣٤) فقد ذكر الله سبحانه المثل العليا من الّذين خلوا من قبلنا لتكون موعظة للقلوب المؤمنة. وإنّ من أسمي الغايات التي أرادها الإسلام هو ذكر الموت كما قال عليّ عليه السلام: ((يا بنيّ أكثر من ذكر الموت وما تهجم عليه)). (الإمام علي، ١٤١٢، شرح عبده، ج٣، ص٤٩) والاعتبار بالموت بغية رفيعة قال فيه علي عليه السلام: ((والله لا أكون كمستمع اللّدم[٥] يسمع النّاعي ويحضر الباكي ثمّ لا يعتبر)). (الإمام علي، ١٤١٢، شرح عبده، ج٢، ص٣٣).

وبما أنّ الرّثاء من مواقفه موقف الحزن والاكتئاب والحسرة علي ما يفرّط الإنسان في جنب الله، فالتّذكير والتذكر وأخذ الموعظة والعبرة من أهمّ ما يمكن أن نعتمد عليه في مصائب الموت. وروي بأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال: ((كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتب، وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الّذي نرى من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون نبوّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلدون بعدهم ثمّ قد نسينا كلّ واعظ وواعظة، ورمينا بكلّ فادح وجائحة)). (الإمام علي، ١٤١٢، شرح عبده، ج٢، ص٣٣) وعلي هذا الأساس لو خرج الرّثاء عن الجدّ والتّشمير ودخل الفكاهيات والدّعابة لهوت رتبته ووهت قوّته كقول إسحاق الموصلي يرثي ((هُشَيمة)) الخمّارة جارتها:

أضحت ((هُشيمةُ)) في القبور مُقيمةً ... وخلَت مَنازلُها مِنَ الفِتيان

كانت إذا هَجَر المُحِبُّ حبيبَه ... دبّت له في السّرِّ والإعلان

حتى يلين لما تريدُ قيادَه ... ويصيرُ سيّئُه إلى الإحسان

(أبو الفرج الاصفهاني، ج٥، ص/٤٢٣)

إنّ الإنسان قد يتقرب من الله عزّ وجلّ لو اتّعظ وتذكر بالموت، وبذلك يتسلي ويسكن فيه روعه، وعليه يجري كلام الصّادق عليه السلام لبعض من أراد تعزيته: ((إن كان هذا الموت قد قرّبك من ربّك أو باعدك عن ذنبك فهذه ليست مصيبة ولكنّها رحمة وعليك نعمة وإن كان ما وعظك ولا باعدك عن ذنبك ولا قربك من ربك فمصيبتك بقساوة قلبك أعظم من مصيبتك بميتك إن كنت عارفا بربّك)).(المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٩، ص٨٩)

وأمّا شمولية الموعظة وصدقها وفصاحتها تتجلي في القرآن الكريم أكثر من غيره حتى الأشعار الراقية نحو ما حكي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عندما خرج إلى صفّين مرّ علي المدائن فلمّا رآي آثار كسرى وقرب خرابها تمثّل رجل من أصحابه فقال:

جرَتِ الرِّياحُ على رُسومِ دِيارهم ... فكأنّهم كانوا علي مِيعادِ

وإذا النّعيمُ وكلُّ ما يُلهَى بِه ... يوماً يَصير إلى بِلىً ونَفاد

فقال علي عليه السلام: لا تقل هذا ولكن قل كما قال الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ؛ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ؛ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ؛ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان/٢٥-٢٨) إنّ هؤلاء القوم كانوا وارثين فأصبحوا موروثين وإن هؤلاء القوم استحلّوا الحرم فحلّت بهم النّقم فلا تستحلّوا الحرم فيحل بكم النقم)).(المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٥، ص٤٧) وهذه الكلمة التي استرسلها علي عليه السلام في التمسّك بالقرآن الكريم بدلاً من الشعر توحي بأن التمثل بالقرآن آكد من التمثّل بالشعر لفصاحته وبلاغته، ورواية القرآن وحفظه أعلق بالذاكرة والأذهان وأحسن تأثيراً من غيره.

وأمّا رثاء الآثار والقصور والدّيار والأطلال والأمكنة ووصفها والبكاء عليها فإنّه ممدوح الذكر في الشّعر إذا أشير فيه إلى مواضع العبرة، وعلى هذا المسار يتجه مثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.(الغافر/٢١) وقد جري في هذه الحلبة من فنّ الرّثاء شعراء لَا يُقَلّ عددهم في العهدَ الجاهلي وما وليها من العصور الأخرى فمن هؤلاء لبيد بن ربيعة العامري الّذي يعبّر عن الحياة والفناء في قوله:

أو لم ترَ أنّ الحوادثَ أهلكت إرماً ورامت حِميَراً بِعظيم

ونزعنَ مِن داوُودَ أحسنَ صَنعةً ولقد يَكونُ بقوةٍ ونَعيمِ

(ديوان لبيد، ١٤١٧، ص١٦٠)

ويقول الشّاعر الجاهلي عدي بن زيد العباد (ت ٣٥ ق.هـ):

أين كسري كسرَي المُلوك أَبُوسا سانَ أم أينَ قبلَهُ سَابُورُ

ثمَّ بعد الفَلاح والمُلك والإ مرءِ وارَثْهُم هناك القُبورُ

ثمَّ أضحَوا كأنَّهُم ورقٌ جَفَّ فألوَتْ به الصَّبا و الدّبُور

(ابن عساكر، ١٤١٥،ج١٦، ص٩٩)

ومثله مرثية الشّاعر أبي ذؤيّب الهذلي في أبناءه الّذين هلكوا بالطّاعون حيث ينتقل فيها إلى أمثلة ثلاثة يتّخذ منها عبرة في شمول الموت، وتعزية لنفسه، وهي هلاك الحمار الوحشي وهلاك الثّور إذا ما طاردته أكلب الصيّادين وهلاك البطل الشّجاع الشّاكي السّلاح في المعركة. ومثله قصيدة أبي العلاء المعري في رثائه المشهور للفقيه الحنفي وكذا في القصيدة الداليّة المعروفة لابن الرومي حيث يرثي فيها آل المخرّق وهم المناذرة ملوك الحيرة وهكذا مرثيّته للبصرة ووصف ما فتك بأهلها الزنج سنة ٢٠٧، أو القصيدة السينيّة للبحتري التي أبدع فيها روائع فنّية وتصاوير حكميّة خالدة بذكر قضايا حيويّة وجوهرية في الحياة والممات والبقاء والفناء بحيث إذا قرأها ذولبّ تذكر واعتبربها.

وتدخل في هذا النطاق الأشعار الحكمية والزهدية وما فيها من عزوف عن الدنيا والتزوّد بها رغبة إلى الآخرة. وفي أخذ الموعظة من أمر الموت والموتى تأكيد عليه بما أُثر إلينا في عدّة

روايات، منها ما روي أنّه: ((أوحى الله تعالى إلى عيسي: يا عيسي هب لي من عينيك الدّموع ومن قلبك الخشية وقم علي قبور الأموات، فنادهم بالصوت الرفيع لعلّك تأخذ موعظتَك منهم وقل إنّي لاحقٌ بهم في اللاحقين)).(الحرّ العاملي، ١٤٠٩، ج٧، ص٧٦).

وكثيراً ما نري في الآيات القرآنية ما ينسج علي منوال أخذ العبرة من الموت نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر/٤٢) خاصّة بيان الحكمة والموعظة في تفسير المنام الذي يشبه الموت في التّوفي حيث تؤخذ الروح من الجسم ثم يؤذن له بالعودة إليه لعدم بلوغ أجله، وفي نهاية الآية يذكر الإنسان ليتدبّر في نفسه كلّما التجأ إلى النّوم. وفي تصوير هذا المعني قال الإمام السجّاد عليه السلام:

تأهّب للمنيّة حين تَغدُو كأنّك لا تعيشُ إلى الرَّواح

فكم من رائحٍ فينا وغادٍ نَعَتْه نُعاتُه قبلَ الصَّباح

(الإمام السّجاد عليه السلام، ١٤٢٣، ص٣١)

ولأمير المؤمنين عليه السلام روائع من الحكم والمواعظ في الموت والاحتضار ما يتطلّب كتاباً مستقلاً في غير هذا البحث حيث جاءت وعظيّةً بالغة الأثر. (راجع: قطب الدين البيهقي، ١٣٧٣ش، ص ٢٠٨) ومن كلام الإمام الحسين عليه السلام إذا رأي القبور: ((ما أحسن ظواهرها، وإنّما الدّواهي في بطونها، فالله الله، عباد الله، لا تشتغلوا بالدّنيا، فإنّ القبر بيت العمل، فاعملوا ولا تغفلوا، وأنشد عليه السلام قائلاً:

يا مَن بِدُنياه اشتَغَلْ وغَـرَّهُ طـولُ الأَمَـلْ

المـوتُ يـأتي بَغتـةً والقبرُ صُندوقُ العمل

(الإمام الحسين عليه السلام، ٢٠٠٦م، ص ١٦٥؛ وصابري الهمداني، ١٤١٥، ص١٦)

وللإمام السجّاد عليه السلام عدّة مراث راقية في ذكر الموت والاعتبار به كقصيدته في قافية القاف يتجاوز عدد أبياتها خمسين بيتاً (الإمام السّجاد عليه السلام، ١٤٢٣، ص٥٩) وله عليه السلام مناجاة معروفة مزج فيها بين النّثر والنّظم (الإربلي، ١٣٨١ش، ج٢، ص٨٨ - ٩٠) كلّها حكم وعبر وخشوع وذلّ في ظلّ الله عزّ وجلّ ذكرها كشف الغمّة بأجمعها و... وله عليه السلام قصيدة ((رائيّة)) في ثلاثة وخمسين بيتاً يذكر الّذين تمتّعوا قليلاً بالحياة الدنيا ثمّ وافاهم الأجل وتركوا ما سكنوا فيها من أبنية شامخة وقصور مترامية فزعموا أنّهم فيها خالدون: (راجع: الإمام السّجاد عليه السلام، ١٤٢٣، ص٣٧)

وممّا يجدر أن نلاحظ في مثل مراثي أهل البيت المعصومين عليهم السلام إنّما هو قوّة الوعظ والتذكير والاستذكار إلى جانب صدق المعاني وشموليّتها وهدفيّتها الصّادقة ودوافعها الخالصة في سردها وبراءتها من كلّ غلّ وغش والتصوير الرائع في ذكر هول الموت والقبر والبلي وتوفير الخلفيّات المناسبة استعداداً للموت... بينما إذا ألقينا نظرة علي المراثي

الأخري لغيرهم من الشّعراء البارعين البارزين سنِمت لنا تصاوير مبدعة مستأهلة للتقدير ولكن من جهة الهدفيّة والشّموليّة يضعف ويقوي بين حين وآخر.

٧-٢. التعزّي والخوف: وقد يكون تعزّي المصاب من أسبابه الخوف أو الخشية من الله لكيلا يحبط عمله علي الجزع ويؤجر علي تصبّره لما قدّر له من البلاء والافتتان كما في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت/٢) يقول أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطّلب في قصيدة جميلة ناطقة بالجودة والتأثير يعزّي فيها فاطمة بنت الرسول ﷺ:

أفاطمَ إن جزعتِ فذاك عذرٌ ... وإن لم تجزعي فهو السّبيلُ

فعودي بالعزاء فإنّ فيه ... ثواب اللهِ والفضل الجزيلُ

وقولي في أبيك ولا تملّي ... وهل يجزي بفعل أبيك قيلُ

فقبر أبيك سيّدُ كلّ قبر ... وفيه سيّد النّاس الرّسولُ

(أسد الغابة، ج٥، ص٢١٥)

هذا وقد يكون من أسباب التّعزّي الخوف من شماتة الأعداء، لأنّ العدو يفرح بما يصيب الإنسان من بلاء فيسخر منه ويوهن إرادته ويتغلّب عليه بانهيار نفسه فلذلك اهتمّ الشّعراء بإظهار التجلّد أمام النكبات الّتي أصيبوا بها حتى لا يُتّهَموا بضعف الموقف والانخذال، ((والصبر علي هذا الأساس سلاح ذو حدين يستعين به صاحبه علي نفسه فيريحها من متاعبها وأوجاعها وعلي غيره فيرتاح من شماتتهم ولومهم ولهذا فهو مفخرة الراثي الّتي يكثر من ترادها خلال رثائه لمن فقد)).(الخطيب، ص١٦٥) وقال الشّريف الرّضي يُصابر نفسه في مرثيته الصّادقة لوالدته السّيدة فاطمة بنت النّاصر الّتي قال فيها:

وأعوذ بالصّبر الجميل تعزّياً ... لو كان بالصّبر الجميل عزائي

كم عبرةٍ موّهتها بأناملي ... وستَرتُها متجمّلاً بردائي

أُبدِي التّجلُّدَ للعدوِّ ولو درَي ... بتململُي لقد اشتَفَي أعدائي

(الشّريف الرضي، ١٣٨٠، ج١، ص٢٦)

ونوّه دعبل بهذه الشّماتة من قبل الأعداء الّذين كانوا ينتظرون قتله ليفرحوا بنعيه، وأورد الشّريف المرتضي لدعبل في الأمالي أبيات علي رأسها:

نعَوني ولم يَنَعَني غيرُ شامِتٍ ... وغيرُ عدوٍّ قد أُصيبت مَقاتِلُهْ

(الأمين، ١٤٠٣، ج٦، ص٢٤)

٧-٣. التعزّي والقصاص: وقد يكون التعزّي من أسبابه أخذ الدية أو القصاص - بدلاً من أخذ الثّأر الّذي حرص عليه المجتمع القبلي الجاهلي - إذ إنّه أصبحت الدّية والقصاص تهويناً لبعض الهموم بالأخص إذا التزم صاحب الدّم بالعفو فإنّ ذلك سيجلب له ارتياحاً نفسيّاً الأمر الّذي ارتضاه الدّين لعباده المؤمنين وطلب منهم العفو والإتباع بالمعروف كآصرة

نفسانية معتمدة علي العقيدة والأخوة الإسلاميّة لا آصرة جسدية تنبني علي عرق نسبي وقَبَلي فحسب، وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ. . .﴾ (البقرة/١٧٨) ولكن مثل هذا الأمر لا يقبله أصحاب المصيبة دائماً خاصةً إذا وقعت فادحة القتل عن ظلم وعداوة أو عن نعرات جاهلية ولجاجة فيرفضون الدية بل يعتبرونها عاراً يبقي أثره، فلا يرتاحون ولا يتسلّون إلاّ بعد أخذ الثأر والانتقام. يقول عبد الله بن جعدة:

فلنقتلنّ بخالد سرواتِكم ولنجعلنْ للظالمين نَكالا

فإذا رأيتم عارضاً متهلّلاً منّا فإنّا لا نحاول مالا

(ابن عبد ربّه، ١٤٠٤، ج٢، ص٢٥٩)

وينهي مُرّة الفقعسي قومه عن قبول الدّية لذهاب المال وبقاء أثر العار علي عقيدته الجاهلية المرفوضة لدي الإسلام فيقول:

فلا تأخذوا عقلاً من القوم إنّني أرى العارَ يَبقَي والمَعاقلُ تَذهَب

(البغدادي، ١٩٩٨م،ج٣، ص٣١)

فعلي هذا كان لبعضهم عدم قبول العزاء حتى يلحّوا في طلب الثأر كقول الشاعر هجرس بن كليب:

يا للرّجالِ لقلبٍ ما له آسِي كيف العزاءُ وثأري عند جسّاسِ

(الزّركلي، ١٩٨٠م، ج٨، ص٧٧)

وقد اشتهر بين العرب ثأر الكفؤ ما يصطلح عليه بـ((البواء))، أي: ((إذا كان من قتلوه بواءً بقتيلهم أي: كفؤاً له. فالثأر: البواء. إذن يريح أهل القتيل ولهذا يسمّونه الثّأر المنيم)). (الخطيب، ص٣٦-٣٧)

بالإضافة إلى ذلك ممّا ينبغي ذكره أنّ مثل هذا التعزّي وهذا النوع من إظهار الجلد والعزاء كان في ذاته أحياناً ثورة مكتومة بحبس الدّمع فهي أداة سياسيّة يتوسّل بها أصحاب المصيبة للتحريض علي القتل وأخذ الثأر نحو ما فعل أبو سفيان وأذنابه إثر هلاك أبطالهم في غزوة بدر. قال الواقدي: ((فلما رجعت قريش إلى مكة قام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنح عليهم نائحة، ولا يندبهم شاعر وأظهروا الجلد والعزاء فإنّكم إذا نحتم عليهم نائحة وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكم عن عداوة محمّد وأصحابه، مع أنّ محمّداً وأصحابه إن بلغهم ذلك شمتوا بكم فتكون أعظم المصيبتين، ولعلّكم تدركون ثاركم، فالدّهن والنّساء عليّ حرام حتى أغزو محمّداً، فمكث قريش شهراً لا يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة...)).(المجلسي، ١٤٠٣، ج١٩، ص٣٤١) والأمثلة الشعرية علي مثل هذا الداعي للوقاية من شماتة العدو كثيرة نكتفي هنا بذكر أبي ذؤيب الهذلي الذي يذكر تجلّده بعد الكارثة الّتي نزلت ببنيه الثّمانية وبعد أن يتحدث عن بكائه في إيجاز، قائلاً:

وتجلّدي للشّامتين أُريهم أنّي لرَيب الدّهر لا أَتضَعضَع

(القرشي، ١٣٤٥، ص٢٦٤)

٧-٤. التعزّي والوراثة: وراثة المُلك أو الملك أيضاً قد تكون ضرباً آخر من أسباب التسلّي لدي صاحب المصيبة كما ((أنّ الخلفاء العرب في العصور الأموية والعباسية كانوا يتوارثون الملك توارثاً فكان الولد يخلف الأب عندما يموت فيتوافد الشعراء يعزون بالخليفة الراحل يهنّئون الخليفة الجديد بالملك فكأنّ انتقال الملك إليه خير عزاء له عن فقد أبيه)). (ابو ملحم، ١٩٧٠م، ص٩٠) يقول ابن رشيق: ((لما مات معاوية اجتمع الناس بابنه يزيد فلم يقدر أحد علي الجمع بين التهنئة والتّعزية حتى أتي عبد الله بن همام السيولي فدخل فقال:

فاصبِر يزيدُ فقد فارقتَ ذا ثقةٍ واشكر حباءَ الّذي بالملك

لا رُزءَ أصبح في الأقوام نعلمُه كما رُزئتَ ولا عَقبي كعَقباكا

أصبحت والي أمر النّاس كلهم فأنت تَرعاهم والله يَرعاكا

وفي معاوية الباقي لنا خلَفٌ إذا نُعِيت ولا نَسمَع بِمَنعاكا

(النّويري، ١٤٢٤، ج٥، ص٢١٥)

وعلي هذه الطريقة أخذ الشّعراء يصنعون في العزاء عن المصيبة والتهنئة بالملك لدي الملوك والخلفاء كما قام به أبو نواس الحسن بن هانئ بين يدي الأمين بعد وفاة أبيه هارون في طوس.(راجع: الطّبري، ١٨٧٩م، ج٦، ص٥٤٤) وكذلك أبو تمام، عندما توفي المعتصم وخلفه ابنه هارون الواثق تقدّم إليه يعزيه ويهنئه وهلمّ جرّاً.

٧-٥. التعزّي والبكاء: إنّ البكاء طريقة طبّعة للتسلّي ولتسكين النفس من هول المصيبة لكنه قد افترق الاهتمام به بين ثقافتيّ الإسلامية والجاهلية إذ إنّ العرب الجاهلي كانت توصي في التعزية أحياناً بعدم البكاء من أجل الاحتفاظ بالغيظ لأخذ الثأر، بينما الإسلام اعتبر الدمعة رحمة من الرب تصدر عن قلوب مفجّعة عند الكوارث والمصائب أو تنبع عن قلوب خاشعة تخشي الله وعظمته فلا نجد أبداً في التعازي المأثورة عن النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام طلب الكف عن البكاء من غير الجزع والنياحة الذينِ نُهِي عنهما لمصالح يراها الإسلام في بعض الظروف. يقول المهلهل في تعيير البكاء:

يبكي علينا ولا نَبكي علي أحد لنحن أغلظُ أكباداً من الإبل

(النّويري، ١٤٢٤، ج٣، ص٢٥٦)

والحديث عن البكاء يقتضي بحثاً آخر كعنصر من عناصر الرثاء لا يسعه هذا المجال.

الملخص:

إن التّعزية من العناصر المهمّة في فنّ الرثاء التي اشتمل عليها الأدب القرآني وتأثر بها الأدب الإسلامي تهدئة للنفوس المهمومة والأفكار المضطربة وحفظاً للمجتمع الإنساني من الوقوع في الفتن والنعرات الجاهلية كما في التعزية لمحات من درب الحقيقة المتصلة بالألوهية إذا مشت علي ثقافة الدين وسنة الرسول ﷺ. ولأهل البيت عليهم السلام فيها رسائل ومراثي بالغة

الأثر وحكيمة. هذا ومن الشعراء من اختلط عليه فهم آيات من القرآن الكريم فيما يتعلّق بالمرأة وتعزيتها أو إعلاء الشأن منها فدرسنا الموضوع فيها بالإضافة إلى بيان ما اختلفت فيه نظرة الإسلام في رثاء الحيوان أو متاع الدنيا أو أعضاء الإنسان عما ورد منه في المراثي المعروفة. والتعزية لها مراتب حسب درجات المصيبة ولها أسباب حسب العقائد الدخيلة في المجتمع وثقافته.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، أهل البيت عليهم السلام، المرثاة الإسلامية، التعزية، المصيبة.

٧. الخاتمة.

بما أنّ الإنسان لا تخلو حياته من بلاء ومصيبة، ولا من همّ وغمّ، فكذا لا يستغني عمّن يشاطره ويواسيه ليصمد ويثبت علي إيمانه والسبيل إلى ذلك هي التعزية التي تعتبر من أهم عناصر(الصور) المرثاة الإسلامية. وإنّ التعزية الإسلامية لها مميزاتها ومعاييرها في النصوص الدينية علي أساليب قرآنية وفيها نماذج كثيرة في السنة النبوية وادب أهل البيت عليهم السلام ممّا يدل علي الاهتمام بها كثقافة ادبية إسلامية وقيمة انسانية في السلوك الاجتماعي، كما وفيها تفريج عن النفوس المهمومة. ولها آثار ايجابية في السلم والحرب.

وقد اختلفت أحياناً مناهج التعزية ودواعيها بين الفكرتين الجاهلية والإسلامية، فمن خصائص الفكرة الإسلامية المتميزة عن الجاهلية في التعزية هي: المعرفة العقيدية في حفظ الوحدة وعدم إثارة الفتنة بين أبناء المجتمع؛ والمعرفة التوحيدية بالاعتماد علي ربّ الكون بدلاً من الانجياز إلى أمور وهميّة لا سند لها؛ وتكريم المرأة كإنسان لها شأن ومرتبة اجتماعية تستحق الرثاء والحنين والبكاء والتعزية رغماً علي تهوينها وتشنيع التعزية بها في المجتمع الجاهلي؛ والنظرة العقلية بأخذ العبرة والاتعاظ في رثاء الحيوان ومتاع الدنيا وأعضاء الإنسان بدلاً من الاندفاع العاطفي جزعاً علي المصيبة.

Abstract

In the Holy Quran, Consolation is one of the most important elements of elegy which is used to pacify the troubled hearts and minds of the bereaved in order to protect the Islamic society from disorder and ignorant prejudices. It has influenced the Islamic literature too.

As knowledge and monotheism can be found in the culture of Consolation and sympathy in Islam and the Sunnah, there are very wise impressive letters and elegies from the Holy Prophet's household (Ahl al-Bayt)

In fact, there are poets who misinterpret some of the verses of the Holy Quran regarding consolation and sympathy with women in which they have underestimated the women's status.

Islam's viewpoint on mourning the loss of animals, material goods, and body organs is another issue which has been studied along with some well-known elegies. It should also be noted that Consolation is of different categories formed based on the culture and beliefs of each and every society.

Keywords: Holy Quran, Elegy, Consolation, Ahl al-Bayt

هوامش البحث

(١) وللاطّلاع علي ما انعكس من هذه التّعازي في الشعر والأدب راجع: ((عبد الله الحسن،١٤١٨، ص٣٩٥)).
(٢) رأيت فلاناً بالسوق: أي بالموت يساق سوقاً (ابن منظور، ١٤٠٥، ج١٠، ص ١٦٧)
(٣) وقال ابن جوزي: ((هذا حديث موضوع علي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم)) (ابن الجوزي، ١٣٨٨، ج٣، ص٢٣٧)
(٤) لكن قال بعض العلماء لم أظفر به بعد التفتيش، وإنما ذكر صاحب الفردوس ممّا لم يسنده ابنه عن ابن عبّاس مرفوعاً بلفظ نعم الكفؤ القبر للجارية، ورواه ابن السمعاني عن ابن عبّاس من قوله بلفظ نعم الأختان... وهو ضعيف جداً.(العجلوني،١٤٠٨، ج١، ص٤٠٧).
(٥) مستمع اللدم: كناية عن الضبع حين تسمع وقع الحجر فتستسلم للصائد. الضرب علي الصدر والوجه عند النياحة. ((الإمام علي، ١٤١٢، شرح عبده، ج٢، ص٣٣)).

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)،(لا تا)، ((**شرح نهج البلاغة**))، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة إسماعيليان، المجلد السابع والتاسع عشر.
- ابن الأثير، ((**أسد الغابة**))، ٥ج، بيروت، دار الكتاب العربي، التاريخ.
- ابن الجوزي (ت٥٧٩هـ)، (١٣٨٨/١٩٦٨م)، ((**الموضوعات**))، ٣ج، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، الطبعة الأولى.
- ابن خلكان (ت٦٨١هـ)، ((**وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان**))، ٧ج، تحقيق احسان عباس، لبنان، دار الثقافة.
- ابن الرومي، (١٩٩٨م)، ((**ديوان ابن الرومي**))، ٦ج، شرح وتحقيق عبد الأمير علي المهنّا، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية.
- ابن عبد ربه الأندلسي، (١٤٠٤)، ((**العقد الفريد**))، ٨ج، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- ابن عساكر (ت٥٧١هـ)، (١٤١٥هـ)، ((**تاريخ مدينة دمشق**))، ٧٠ج، تحقيق علي شيري، مطبعة دار الفكر.
- ابن قولويه، جعفر بن محمد (ت٣٦٧هـ)، (١٤١٧هـ)، ((**كامل الزيارات**))، تحقيق الشيخ جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة نشر الفقاهة، الطبعة الأولى.
- ابن المعتز، (١٩٧٦م)، ((**طبقات الشعراء**))، عبد الله بن محمد، تحقيق عبد الستار أحمد، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- ابن منظور (ت٧١١هـ)،(١٤٠٥هـ)، ((**لسان العرب**))، ١٥ج، قم، نشر أدب الحوزة.
- أبو فراس، (١٤١٤/١٩٩٤م)، ((**ديوان أبي فراس**))، تحقيق خليل الدويهي، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.
- أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، ((**الأغاني**))، ٢٤ج، تحقيق سمير جابر، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية.
- ابو ملحم، علي، (١٩٧٠م)، ((**في الأدب وفنونه**))، بيروت، المطبعة العصرية للطباعة والنشر.
- الإربلي، علي بن عيسي (ت٦٩٣هـ)، (١٣٨١ش)، ((**كشف الغمة**))، ٢ج، مكتبة بني هاشمي، تبريز.
- الإمام الحسين عليه السلام، (٢٠٠٦م)، ((**ديوان الإمام الحسين** عليه السلام))، شرح ومراجعة محمد شراد حساني، حيدر كامل فرحان الزرقاني، بيروت، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى.
- الإمام السجاد عليه السلام، (١٤٢٣/٢٠٠٢م)، ((**ديوان الإمام السجاد** عليه السلام))، تحقيق ماجد بن أحمد العطية، بيروت، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأولى.

- الإمام علي عليه السلام،(١٤١٢-١٣٧٠ش)، ((**نهج البلاغة**))، ٤ج، تحقيق وشرح الشيخ محمد عبده، قم، دار الذخائر، الطبعة الأولى. المجلد الثاني والثالث.
- الأمين، السيد محسن، (١٤٠٣/١٩٨٣م)، ((**أعيان الشيعة**))، ١٠ج، تحقيق وتخريج حسن الأمين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات.
- الأميني (ت١٣٩٢هـ)، (١٣٩٧/١٩٧٧م)، الشيخ عبد الحسين، ((**الغدير**))، ١١ج، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتاب العربي.
- البحتري،(١٤١٤/١٩٩٤م)، ((**ديوان البحتري**))، شرحه وعلّق عليه محمد التونجي، بيروت، دار الكتاب العربي.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ)، (١٩٩٨م)، ((**خزانة الأدب**))، ١٣ج، تحقيق محمد نبيل طريفي واميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجواهري، الشيخ محمد حسن النجفي، (١٣٩٧هـ)، ((**جواهر الكلام**))، ٤٣ج، تحقيق الشيخ عباس القوچاني، دار الكتب الإسلامية آخوندي، الطبعة الثانية.
- الحر العاملي، شيخ محمد بن حسن، (١٤٠٩هـ)، ((**تفصيل وسائل الشيعة إلي تحصيل مسائل الشريعة**))، ٢٩ج، قم، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، الطبعة الأولى.
- حسانِ بن ثابت، (١٤١٠ - ١٩٩٠م)، ((**ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**))، ٢ج، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي.
- الحلبي (ت١٠٤٤هـ)، (١٤٠٠هـ)، ((**السيرة الحلبية**))، ٣ج، بيروت، دار المعرفة.
- حيدر المؤيد، الشيخ علي،(١٤٢٢/٢٠٠٢م)، ((**ديوان أهل البيت** عليهم السلام))، دار العلوم، الطبعة الأولى.
- الخطيب، محمد علي بشري، (لا تا)، ((**الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام**)).
- الخنساء،(لا تا)، ((**ديوان الخنساء**))، بيروت، دار صادر.
- الزبيدي،(١٤١٤/١٩٩٤م)، ((**تاج العروس**))، ٢٠ج، بيروت، دار الفكر.
- الزركلي، خير الدين (ت١٤١٠)، (١٩٨٠م)، ((**الأعلام**))، ٨ج، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة.
- الزمخشري،(١٣٨٥/١٩٦٦م)، ((**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**))، ٤ج، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- السبزواري، (١٤١٠/١٩٩٣م)، الشيخ محمد،((**معارج اليقين في أصول الدين**))، تحقيق علاء آل جعفر، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى.
- السوداني، عبد الله،(١٤٢٠/١٩٩٩م)، ((**رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي**))، المجمع الثقافي.
- الشربيني، محمد بن أحمد (ت٩٧٧هـ)، (١٣٧٧/١٩٥٨م)، ((**مغني المحتاج**))، ٤ج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، المجلد الأول.
- الشريف الرضي، (١٣٨٠/١٩٦١م)، ((**ديوان الشريف الرضي**))، ٢ج، بيروت، دار صادر.
- شوقي ضيف،(لا تا)، ((**الرثاء**))، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- الشهيد الأول (ت٧٨٦هـ)، (١٤١٩هـ)، ((**ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة**))، ٤ج، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.
- الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، (١٤١٤/١٩٩٣م)، ((**الأمالي**))، تحقيق حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، بيروت، دار المفيد، الطبعة الثانية.
- صابري الهمداني، أحمد، ١٤١٥، ((**ادب الحسين وحماسته**))، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثالثة.
- صبحي أبو حسين، محمد، (١٤٢٦ - ٢٠٠٥م)، ((**صورة المرأة في الادب الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين**))، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- الصدر، السيد حسن (ت١٣٥١)،(لا تا)، ((**نهاية الدراية**))، تحقيق ماجد الغرباوي، قم، نشر المشعر.
- الصفدي (ت٧٦٤)، (١٤٢٠/٢٠٠٠م)، ((**الوافي بالوفيات**))،٢٩ج، تحقيق أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث.

- الطبري، ابن جرير، (١٨٧٩م)، ((**تاريخ الطبري**))، مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الأجلاء، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- الطريحي، فخر الدين، (١٣٧٥ش)، ((**مجمع البحرين**))، ٦ج، تحقيق سيد أحمد حسيني، طهران، المكتبة المرتضوية، الطبعة الثالثة.
- عبد الرشيد عبد العزيز سالم، (١٩٨٢)، ((**شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم**))، الكويت، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى.
- عبد الله الحسن، ١٤١٨هـ، ((**ليلة عاشوراء في الحديث والأدب**))، الطبعة الأولى.
- العجلوني (ت١١٦٢)، (١٤٠٨-١٩٨٨م)،((**كشف الخفاء**))، ٢ج، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة.
- الفتني (ت٩٨٦هـ)،(لا تا) ((**تذكرة الموضوعات**)).
- الفراهيدي، خليل بن أحمد، (١٤١٤هـ)، ((**كتاب العين**))، ٨ج، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى.
- القرطبي، محمد بن أحمد، (١٣٦٤ش)، ((**الجامع لأحكام القرآن**))، ٢١ج، طهران، انتشارات ناصر خسرو، الطبعة الأولى.
- قطب الدين البيهقي، ابو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي النيشابوري الكيدري (القرن السادس)، (١٣٧٣ش)، ((**ديوان الإمام علي** عليه السلام))، تصحيح أبي القاسم الإمامي، انتشارات الأسوة، الطبعة الأولى.
- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي طالب،(١٩٢٦/١٣٤٥م)، ((**جمهرة أشعار العرب**))، مصر، المطبعة الرحمانية.
- الكليني (ت٣٢٩هـ)، (١٣٦٢ش)، ((**الكافي**))، ٨ج، تحقيق علي أكبر الغفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة.
- لبيد بن ربيعة،(١٩٩٧/١٤١٧م)، ((**ديوان لبيد بن ربيعة العامري**))، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له عمر فاروق الطبّاع، بيروت، شركة دار الأرقم، الطبعة الأولى.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٦هـ)، (٢٠٠٩م)، ((**التعازي والمراثي**))، بيروت، دار الكتب العلمية.
- المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، (١٤٠٩ - ١٩٨٩م)، ((**كنز العمال**))، ١٦ج، تحقيق الشيخ بكري حياني، الشيخ صفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- المتنبي،(١٩٨٦/١٤٠٧م)، ((**شرح ديوان المتنبي**))، ٤ج (في مجلدين)، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.
- المجلسي (ت١١١١هـ)، (١٩٨٣/١٤٠٣م)، ((**بحار الأنوار**))، ١١٠ج، تحقيق السيد هداية الله المسترحمي، بيروت، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية.
- المقريزي (ت٨٤٥)، (١٩٩٩/١٤٢٠م)، إمتاع الأسماع، ١٤ج، تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- المكارم الشيرازي، ناصر، (١٤٢١هـ)، ((**الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**))، ٢٠ج، مدرسه إمام علي بن أبي طالب، قم، الطبعة الأولى.
- الميرزا النوري (ت١٣٢٠هـ)، (١٤٠٨/ ١٩٨٨م)، ((**مستدرك الوسائل**))، ١٨ج، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الثانية.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (٢٠٠٤/١٤٢٤م)، ((**نهاية الأرب في فنون الأدب**))، ٣٣ج، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.